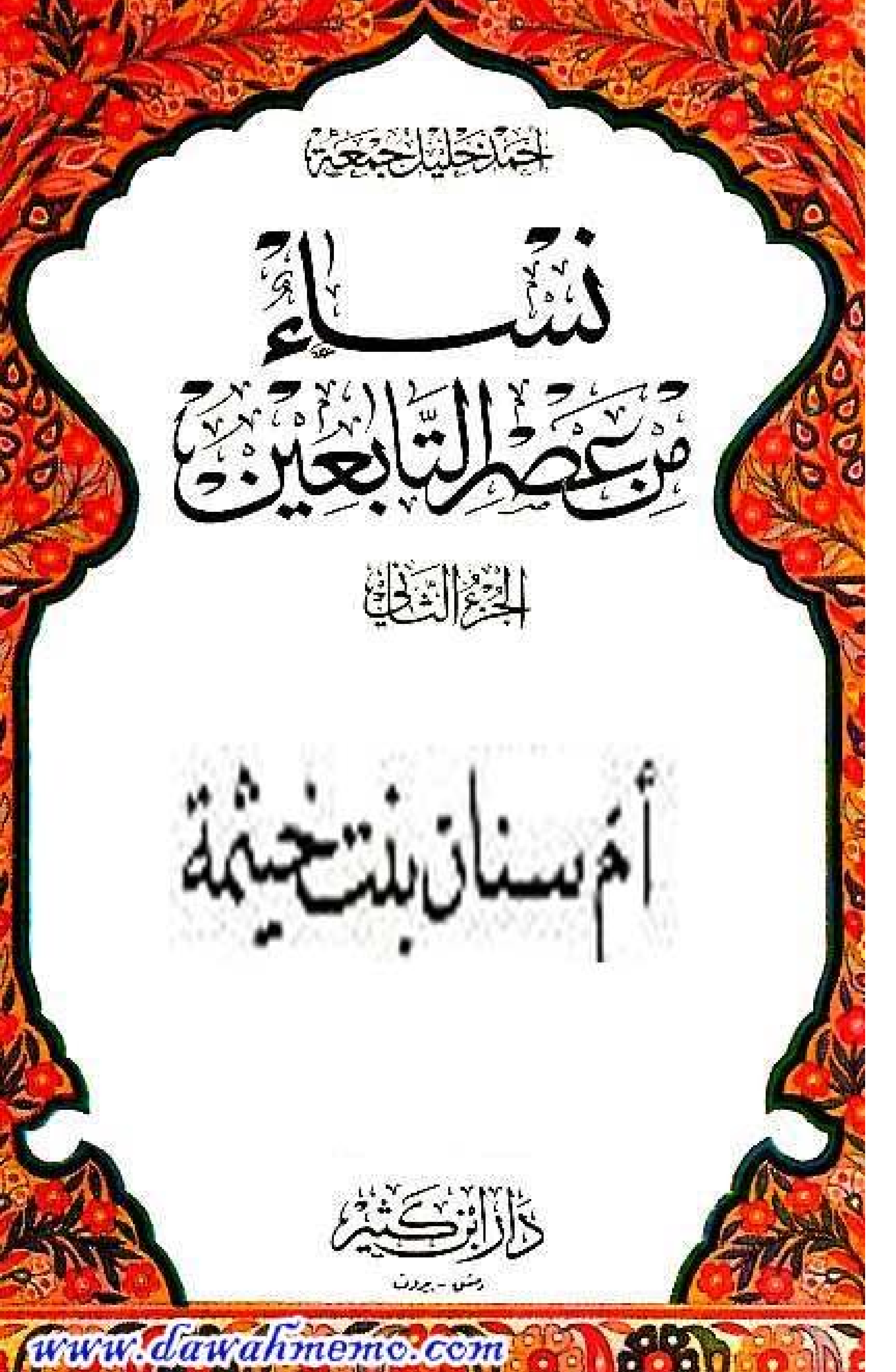

أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
الجزء الثاني
أم سنان بنت خيثمة
دار ابن كثير
دمشق - بيروت
www.dawahmemo.com

(١٢)

أمّ سنان بنت خيثمة

* فصيحة ، شاعرة ، لها قصة مع مروان بن الحكم ، ولقاء مع معاوية بن أبي سفيان ، قوّالة بالحق ، تجهر بالرأي .

أُمُّ سِنَان بِنْتُ خَيْثَمَةَ

نُصَراءُ عَلِيّ مِنَ النِّساءِ :

* كان جندُ عليّ بن أبي طالب عليه سحائب الرّضوان ، أحفل الأجناد بذوات القول الفصل ، والرّأي الجزْل من النّساء ، وكان لهن في « صِفّين » مقامات ومواقف محمودة ، صكّتْ أسماع المعاندين ، وروّعت نفوسهم ! .

* ومن هؤلاء النّسوة النّصراء ، بكارة الهلالية ، وسودة بنت عمارة[1] ، وأمُّ الخير بنت الحريش البارقيّة[2] ، والزّرقاء بنت عدي ، وعكرشة بنت الأطش ، وضيفة هذه الصّفحات أمّ سِنان بنت خَيثمةَ بن خَرشةَ المذحجّية[3] ؛ وغيرهن كثيرات من نظائرهن وأشباههن ممن أوتين جوامعَ الكلم ، وجمعْنَ أشتات الحكم ، بين ازدحام الصّفوف ، وتحت بريق السّيوف ، فلم يكن يخيفهن كثرة الأبطال ، ولا أسِنّة الرّماح ، أو ما شابه ذلك في ميادين القتال .

* ولما تبدلتِ الأيامُ ، وتغيّرتِ الأحوالُ ، واستقرّ الأمرُ لمعاوية

(١) اقرأ سيرتها في هذا الكتاب .
(٢) اقرأ سيرتها في هذا الكتاب ففيها مواقف ومآثر محمودة .
(٣) تاريخ دمشق (ص ٥٣٠) ، والعقد الفريد (١٠٨/٢) .

ـ رضي الله عنه ـ ، كان يستدعي بعض هؤلاء النّسوة الفصيحات ، ويستمع إلى بلاغتهن ، ويعجب لجرأتهن وصراحتهن أمامه ، خصوصاً عندما يُغْلِظنَ له بالقول ـ أحياناً ـ فكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ أكبر همّةً ، وأسمى نفساً من أنْ يقدمَ على إيذاءِ أي منهن أو قتلها مهما أغلظت له بالقول ، أو عرّضتْ به ، بل كان ـ رضي الله عنه ـ يبادرهن بالصِّلةِ ، ومن ثم يرجعهن من حيث قدمن وقد نالتهن جائزته .

* ومن بين هؤلاء النّسوة الخالدات : أمّ سنان بنت خيثمة التي حفظتْ ذاكرة معاوية قطعة من شِعْرِها يوم صفّين ، كما حفظت ذاكرة رجلٍ شاميّ قطعة أخرى من شعرها ، أمّا ذاكرةُ التّاريخ فقد وعت كلَّ ما قاله هؤلاء جميعاً .

* * *

مِنَ المدينةِ إلى الشّامِ :

* بعد أنِ انتهت موقعةُ صفّين ، عادت أمُّ سنان بنت خيثمة إلى المدينةِ المنوّرة ، وحطّتْ رحالها هنالك ، واستقرّتْ فيها ، وعندما وليَ معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ الخلافة ، وليَ مروانُ بن الحكم المدينة المنورة مرّتين من سنةِ (٤٢ ـ ٤٩ هـ) ، ثم تولاها مرة أخرى سنة (٥٦ و ٥٧ هـ) .

* وكان لمروانَ بن الحكم مع أمّ سنان قصة ؛ أسمعته فيها من غليظ القول وخشنِ الكلام شيئاً غير يسير ، ثمَّ توجهت إلى دمشق تشكوه إلى أميرِ المؤمنين معاوية لأنّه حبس حفيدها ، فألْفَتْ لدى معاوية أذناً

صاغية ، وقضى حاجتها ، ولكنَّ محاورة جرت بينهما كشفت لنا عن فصاحتها وبلاغتها وشاعريتها .. فلنعش أحداث القصة من بدايتها .

فقد حبس مروان بن الحكم[1] ـ وهو والي المدينة ـ غلاماً من بني ليث في جناية جناها بالمدينة المنورة ، فأتته جدّةُ الغلام أمّ أبيه ، وهي أمّ سِنان بنت خيثمة بن خرشة المذحجيّة ، فكلّمته في شَأْنِ الغُلامِ ، وطلبت أنْ يصفحَ عنه أو يخففَ عنه الحبس .

ولكن مراونَ بن الحكم أغلظ لها في القولِ وانتهرها وزجرها ، فأغلظتْ له هي الأخرى ، ثم فكّرت في الذَّهاب إلى مقر الخلافة فهناك معاوية ، وهو الذي يستطيع أنْ يرفعَ عنها الظّلمَ فتجهزتْ وشدّتْ رحالها ، وتوجهت نحو دمشق ونفسها مملوءة غيظاً على ابن الحكم الذي لم يعرف مكانتها وقَدْرها ، ومن ثم كبّدها عناء السَّفر ومشقته .

* * *

أمُّ سِنَان في مَجْلسِ مُعَاوِيةَ :

* لما قدمت أمّ سنان دمشق ، استأذنتْ على معاوية فأذنَ لها ،

---

(١) مروانُ بنُ الحكم بن أبي العاص ، القرشيّ الأمويّ ، الملك أبو عبد الملك ، مولده بمكة سنة (٢ هـ) وإليه يُنسب بنو مروان ، جَعَلَه عثمان ـ رضي الله عنه ـ في خاصته واتخذه كاتباً له ، وقاتل مروان في وقعة الجمل ، وشهد صفين مع معاوية ، ثم أمّنه علي ـ رضي الله عنه ـ فأتاه فبايعه ، وأقام بالمدينة ، إلى أنْ وليَ معاوية الخلافة فولّاه المدينة ، وفي سنة (٦٤ هـ) أصبح الخليفة بدلَ معاوية بن يزيد ، وهو أول مَنْ مَلَكَ من بني الحكم بن أبي العاص . وتوفي بالشّام في سنة (٦٥ هـ) وأخباره كثيرة ومشهورة في الكتب (سير أعلام النبلاء : ٤٧٦/٣ ـ ٤٧٩) ، و (الأعلام : ٢٠٧/٧) .

فانتسبتْ له فعرفها ، وأمرها بالجلوس ، فلمّا جلست قال لها : مرحباً يا ابنة خيثمة ، ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تبغضينَ قومي ، وتحضّين عليّ عدوي ؟ .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إنّ لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يسفهون بعد حلم ، ولا يتعقبون بعد عفو ، وإنَّ أولى النّاس باتباع سنن آبائه لأنتَ .

قال معاوية ـ رضي الله عنه ـ : صدقتِ يا أمّ سنان ، نحنُ كذلك . ثم سادت فترة صَمْتٍ ، قطعها معاوية بسؤالٍ لأمّ سنان يذكرها فيها بشعرها وتحريضها عليه ، فقال لها : كيف قولك :

عَزبَ الرّقادُ فمقلتي ما ترقدُ
والليلُ يُصدر بالهمومِ ويوردُ
يا آل مِذْحج لا مُقامَ فشمّروا
إنّ العدوّ لآلِ أحمدَ يَقصدُ
هذا عليٌّ كالهلال تحفُّهُ
وسْطَ السّماءِ من الكواكبِ أسعدُ
ما زال مُذْ شهدَ الحروبَ مظفّراً
والنّصرُ فوق لوائه ما يُفقدُ

وكانت أمُّ سنان ـ رحمها الله ـ تصغي لما ينشده معاوية من شعرها ، ولما انتهى قالت له : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وإنّا لنطمع أنْ تكونَ لنا خلفاً بعده ، فمثلك جدير بذلك .

وقبل أن يتكلم معاوية بكلمة ، قال رجلٌ من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ، وأنا أحفظُ مِنْ شِعْرِها خلاف ما تقوله لك الآن ، فهي القائلة :

إما هلكتَ أبا الحُسين فلم تزلْ
بالحقّ تُعرفُ هادياً مهديا
فاذهبْ عليك صلاة ربّك ما دعتْ
فوق الغُصون حمامة قُمريا
فاليوم لا خلفٌ يؤمّل بعده
هيهات تمدحُ بعده إنسيا

عندئذ قالت أمُّ سنان وعلائم الحزم والصِّدق ترتسم على وجهها وهي تعرّضُ بجلسائه : يا أمير المؤمنين ، لسانٌ نطقَ ، وقولٌ صَدَق ، ولئن تحقّقَ فيك ما ظننّا فحظُّك الأوفر ، والله ما ورّثك الشّناءة ـ البغض ـ في قلوبِ المسلمين إلا هؤلاء ـ وأشارت إلى بعض جلسائه ـ فادحضْ مقالتهم ، وأبعدْ منزلتهم ، فإنّك إنْ فعلتَ ذلك ازددتَ من اللهِ عزَّ وجلَّ قرباً ، ومنَ المسلمين حُبّاً .

وتعجّبَ معاوية ـ رضي الله عنه ـ مما تقول ، فقطعَ عليها مقالتها قائلاً : وإنّك لتقولين ذلك يا أمّ سنان ؟ ! .

قالت : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، والله ما مثلك مُدِحَ بباطل ، ولا اعتُذر إليه بكذبٍ ، وإنّك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا ، كان والله عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ أحبَّ إلينا منك إذ كان حيّاً ، وأنتَ أحبَّ إلينا من غيرك إذ أنت بَاقي .

فسألها معاوية : ومِمن أنا أحبّ إليكم ما دمتُ باقياً ؟ .

فقالت : يا أمير المؤمنين ، أنتَ أحبّ إلينا من مروانَ بنِ الحكم ، وسعيد بنِ العاص .

قال : وبم استحققتُ بذلك عليهما ؟ .

قالت : بحُسْنِ حلمك ، وكرم عفوك .

فقال معاوية : وإنّهما ليطمعان في ذلك .

قالت : نعم ، فهما والله لك من الرّأي ، على ما كنتَ عليه لعثمانَ بنِ عفان ـ رضي الله عنه ـ[1] .

قال : واللهِ لقد قاربتِ .

وانتهى الحوار هنا ، ولم يعد معاوية ـ رضي الله عنه ـ يسألها عن أي شيء .

* * *

إكْرَامُهَا وَقَضَاءُ حَاجَتِهَا :

* ساد صمتٌ في مجلس معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وسكتت أمّ سنان عن الكلام بعد أن وضعته في مواضعه ، ووضعت النقاط على الحروف ، وكان سيدنا معاوية راضياً كلّ الرّضى عما تقول أمّ سنان ، ولكنّ وراء وفادتها عليه أمْرٌ ما ولم يطّلِعْ عليه بَعْدُ ، فتوجّه إليها قائلاً :

(١) تريد أن مروان وسعيد يأملان الخلافة بعد معاوية ، كما كان معاوية يأملها بعد عثمان .

ما حاجتك الآن يا أمّ سنان ؟ .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إنَّ واليك مروان بن الحكم تَبَنَّكَ بالمدينة ـ أقام بالمدينة ـ تبنُّك مَنْ لا يريد البَرَاح منها ، فلا يحكم بعدلٍ ، ولا يقضي بسُنَّةٍ ، وهو يتتبع عثرات المسلمين ويكشفُ عورات المؤمنين ، وقد حبس ابن ابني فأتيته ، فقال كيت وكيت ، فلم أسكت له وألقمته أخْشَنَ من الحجر ، وألعقته أمرّ من الصّاب[1] ، ولكنّني يا أمير المؤمنين رجعتُ إلى نفسي باللائمة وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى مَنْ هو أولى بالعفو منه ، فأتيتك لتكون في أمري ناظراً ، وعليه معيناً وناصراً .

قال معاوية : صدقتِ يا هذه ، فلا أسألك عن ذنبِ حفيدك ، ولا أسألك القيام بحجته ، والدّفاع عنه .

ثم قال لكتابه :

اكتبوا لأمّ سنان بإطلاقِهِ وإخراجه من سجنه . فشكرت أمّ سنان معاوية على معروفِهِ وقالت له : يا أمير المؤمنين ، وأنّى لي بالرّجعة إلى المدينة المنوّرة ، وقد نفذ زادي ، وكلّت ـ ضعفت ـ راحلتي ؟ ! .

عندئذ أمر لها معاوية براحلةٍ موطأة ، ووصلها بخمسة آلاف درهم ، وردَّهَا إلى المدينة المنوّرة وقد قُضيت حاجتها ، وكان لسانها يلهجُ بالدّعاء لمعاويةَ[2] .

(١) « الصَّاب » : شجر بتهامة ، إذا قُطع منه عود خرج منه لبن إذا أصاب العين أحرقها . تريد أنها : أسكتته بحجتها وشدة كلامها .

(٢) عن تاريخ دمشق (ص ٥٣١ و ٥٣٢) ، وشاعرات العرب (ص ١٧٦ و ١٧٧) بتصرف يسير .

* هذه أمُّ سنان المذحجيّة ، إحدى نِساء عصر التّابعين ، وممن فُطرت نفسها على الصّفاء والصّراحة ، وأوتيت شطراً من البلاغة والحكمة ما جعلها في سجل ناصع يحكي خلودها وخلود أمثالها .

* رحم الله أمّ سنان بنت خيثمة ، ونضّر قبرها ، وغفر لها ، فقد كانت بحقٍّ امرأة قدوة في الصّدق والوفاء .

* * *